تقنيات الزمن في الرواية الموريتانية

انتظام الخبر ودلالة الفعل

محمد الحافظ محمد الفتح
رئيس شعبة اللغة العربية
المدرسة العليا للتعليم

عتبة

يدخل هذا العمل في سياق السرديات التطبيقية التي تسعى إلى أن تكشف أحد عناصر بنية الخطاب في النص السردي عموما والنص الروائي خصوصا، وهو بذلك امتداد لما أرساه أساتذتنا[1] من تقاليد علمية احتضنتها الجامعات العربية في العقود الأخيرة بغية الإسهام في تطوير المناهج النقدية.

وفي هذا الإطار سنحلل انتظام الزمن في إحدى الروايات الموريتانية المصنفة في الرواية التي تعتمد سردية بسيطة لنبين أن من روايات الصحراء ما يستمد جماليته من أحد مكونات الخطاب، ورغم أن هذا النص في ظاهره تراجع مقارنة مع القبر المجهول، فإنه في محور الزمن استخدم تقنيات خاصة لها دورها في بناء النص

لقد ظل الزمن عنصرا أساسيا من مكونات الخطاب السردي، واهتم به الدارسون وخاصة عندما اكتملت نظرية السرد وأصبحت السرديات مستقلة باعتبارها فرعا من فروع النظرية النقدية داخل ما يعرف بالشعرية.

أولا: انتظام الخبر

ونعني به ما يحدّد انطلاقا من العلاقة ما بين زمن القصة من جهة وزمن السرد من جهة أخرى، أو بعبارة أخرى التقسيم الثنائي الذي درج عليه الباحثون، حيث ينقسم الزمن إلى زمن القصة وزمن الخطاب الذي يعتبر خطيا في حين أن الأول متعدد الأبعاد. في القصة يمكن أن تقع أحداث في الوقت نفسه، إلا أن الخطاب لابد أن يقدمها متتابعة[2]. ويحاول بعض الدارسين" ضبطهما من خلال

---

[1] – نشير هنا إلى ما أنجزه الدكتور سعيد يقطين والدكتور محمد الأمين مولاي إبراهيم خاصة.

2– Tzvetan Todorov: Les catégories du récit in Communications 8 ; l'analyse structurale du récit; Editions Seuil 1981 p 145

محورين متوازيين يسجل في أحدهما زمن السرد وفي الآخر زمن القصة"[1]. ومن هنا تنشأ علاقة بين الزمنين تطال الترتيب والمدة[2]، إضافة إلى سرعة الحكي بين السرد والوصف[3].

يعتبر الزمن في أغلب الروايات الموريتانية دائريا، حيث يبدأ من نقطة ليعود إليها ويتجاوزها لينفتح على المستقبل. وسنكشف طرائق انتظامه ودلالة الفعل فيه، انطلاقا من العيون الشاخصة.

ويلعب الزمن دورا بارزا في انتظام المحكي ويتضح ذلك من خلال التقنيات التالية:

1- **التناوب**

إن الناظر إلى هذه الرواية يجد أنها تحكي قصة مركزية هي انتقال أهل الشيخ حمدان ولد سيدين من بئر الخير إلى مدينة نواكشوط إلا أن ذلك لا يتم على النحو المألوف في السرد، وإنما من خلال مجموعة من الحكايات تتصل كلها بأهل الشيخ، ولذلك يمكن اعتبار التناوب بين هذه الحكايات هو الذي يحكم انتظام الخبر عبر مجموعة من الصلات على النحو التالي:

- **التلمذة:** وتمثلها حكاية طالب العلم محمد ولد مختاري الذي جاء من الشرق ليدرس في محضرة الحي، ويبين النص علاقته الوثيقة، وحضوره الغالب في الحكايات الأخرى، فهو الذي يرشحه الشيخ للزوج من ابنته الجوهرة النفيسة، وهو الحريص على الإصلاح ورعاية الشأن العام نيابة عن الشيخ نتيجة غياب الذكور الفاعلين في الأسرة من سنه.
- **القرابة:** وعبرها يقدم النص حكايات أبناء العائلة على النحو التالي:
  - **حكاية الفتى "النجيب "**، من أبناء العائلة (عالم محضري موهوب .. نفسه ظامئة إلى المزيد ... زاوي مرابطي رزين خجول غير مهتم لمخالطة الآخرين[4]. هاجر إلى مدينة نواكشوط 1973 فدرس سنتين ثم شارك في الباكلوريا سنة 1975 ونجح ليواصل دراسة الفلسفة في سوريا. ولما عاد إلى نواكشوط 1981 حاملا شهادته لم يجد عملا فذهب إلى ليبيا وعمل هناك في الرعي فاختلف مع مُشغّله وضربه فاقتادته السلطات وجاءت به إلى نواكشوط، حيث تسلمه أهله في وضعية من الجنون ....

1- يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي، ص 68

2- العيد، يمنى: تقنيات السرد الروائي، ط1، 1990، ص 73

3- انظر: Jean Miche l Adem: Le récit Avril 1987. p12

4- العيون الشاخصة: ك أحمدو ولد عبد القادر، منشورات مؤسسة امربيه ربه لإحياء التراث، ط 2014، ص 41

- **حكاية عزة بنت حمدان**، أخت النجيب، أبوها شيخ المحضرة، المُصِر على البقاء رغم الجدب والقحط حفاظا على المحضرة وتجنبا لما ينجر عن الانتقال إلى المدن من فساد في الأخلاق. الجوهرة النفيسة تسهر على العناية بأبيها بعدما توفيت أمها إثر مرض أصاب الحي. كان الأب يريدها زوجة لتلميذه محمد ولد مختاري، رفض أن يزوجها لابن عمها دلدول. وبعد وفاة الشيخ اتصلت بمجموعة" التبتابة"، فكانت قائدة في إحدى مسيراتهم الانتخابية بعد أن تعب الشيباني ومحمد ولد مختاري بحثا عنها. "وكانت على رأسهم سيارة تويوتا جديدة صفراء مكشوفة ويقودها السيد (التبتاب) بُوقَفَة وينتصب حول كتفيه شخصان لوّحا بالصور والأعلام أحدهما السيد اللحْلاح والثاني ليس شخصا آخر غير (الجوهرة الثمينة): عزة بنت حمدان"[1] .
- **حكاية دلدول**: ابن عم النجيب،" بعيد من صفة العالم ولا يمكن وصفه بالجهل. بل هو ذو مستوى قريب من المتوسط لا عن نقص في الذكاء وإنما لضعف في التوجه حركي مرح بشوش مخالط للناس ص"[2]. هاجر صحبة ابن عمه النجيب إلى نواكشوط إلا أنه تنقل بين بعض دول إفريقيا يزاول التجارة أحيانا، ويبحث عن الجواهر النفيسة أحيانا أخرى. فسُجن في الخارج. ولما أُطلق سراحه عاد إلى الوطن ليصبح" تبتابا[3]" مع مجموعة من المحترفين خدعوه حتى رَمَوه في غياهب السجن واستولوا على ممتلكاته،" هؤلاء اللصوص(التبتابون) يخدعون الناس .. ويخدعون اللوائح! يسرقون ويغشون ... فالدولة حسنا فعلت يا أخي بإعطاء الحرية للمواطنين ولكن يجب أن تَحْذَر من هؤلاء وأن تعاقبهم .. إنهم مجرمون! ...اقترفوا جرائم في معاملات غير شرعية وغسلوا أيديهم منها وتركوه (دلدول) وحده ضحية .. حكم عليه بغرامات ثقيلة وبالسجن النافذ لمدة خمس سنوات "[4].
- **حكاية سلامة**: أخت دلدول، أبوها من الداعين إلى الهجرة. جاءت إلى نواكشوط بعد إصابتها بالسل، شاركت في مسابقة تكوين المعلمين فنجحت وتخرجت وتزوجت

---

[1]– العيون الشاخصة، ص 134

[2]– العيون الشاخصة، ص 41

[3]–عبارة عامية من الألفاظ التي ظهرت في الثمانينات للتعبير عن الأعمال غير المصنفة التي يتجاوز أصحابها القوانين غالبا

[4] – العيون الشاخصة، ص 124

لتقيم في روصو. وبعد خلاف بينها وبين زوجها جاءت مطلقة تحمل طفليها لتصادف عودة أخيها، فمنحها قسرة في نواكشوط لتعيش فيها وتتزوج مع ولد مختاري "بعد مرور شهرين من يوم المسيرة حضر الشيخان: خونا والشيباني بعد صلاة العشاء بساعة في ليلة مقمرة، عقد زواج خامل بدون زغاريد ولا احتفالات (قسرة) القمر الصناعي بين سلّامة بنت حمدان ومحمد ولد مختاري إمام مسجد الصفيح"[1].

ونجد التقنيات المتعلقة بالزمن، والتي تحدد الصيغ الزمنية التي نقلت إلينا القصة من خلالها ويتعلق الأمر بالعلاقة بين الوحدات المكونة للنص، ويمكن أن نميز في هذا المستوى:

- **الترتيب:** وهنا نتابع الأحداث حسب ظهورها في السرد وتتم مقارنتها مع وقوعها على مستوى زمن الوقائع وحينها يتم الكشف عن الاستباقات والاسترجاعات الموجودة في النص[2].
- **الحركات السردية:** حيث يستطيع الراوي أن يلخص فترة زمنية طويلة في بضعة جمل، كما "يمكن أن نحكي عن أربعة وعشرين ساعة من حياة إنسان في ألف صفحة"[3].

"وقد وضع جنيت أربعة أنواع من الحركات السردية: المشهد، التلخيص الحذف والوقفة[4]، وهنا يمكن أن نلاحظ أن اثنتين من هذه الحركات يعتمدها الراوي عندما يسعى إلى تسريع الحكي، وهما: الحذف والإجمال، في حين أن اثنتين تسهمان في تبطئة السرد وهما المشهد والحذف.

- **التردد:** وهو نوعان أحدها ينقل الراوي حدثا واحدا أكثر من مرة، أما النوع الثاني فيتضح من خلال رواية حدث مرة واحدة في حين أنه وقع عدة مرات[5].

لقد أشرنا سابقا في المدخل النظري الذي تصدر البحث إلى المفاهيم المرتبطة بالزمن وخاصة ما يتعلق بزمن القصة وما عرف من مصطلحات، وزمن الخطاب وما يتصل به. وتوصلنا إلى تبني ما

---

[1] – العيون الشاخصة، ص 135

[2]– نظرية السرد، مرجع مذكور، ص 123

[3]– المرجع السابق، ص 125

[4]– الرجع السابق، ص 126 و127

[5]– المرجع السابق، 128

حدده الباحثون من اعتماد زمن القصة باعتباره الزمن الذي تجري فيه الأحداث من بدايتها إلى نهايتها. في حين يمثل زمن الخطاب اختيارات الكاتب وتخطيبه لهذا الزمن، أي سرده للأحداث عبر الاسترجاع والاستباق والحذف وغير ذلك. إن الحديث عن الزمن في نص سردي يتطلب بالضرورة الحديث عن نوعين من الزمن، وهما زمن القصة وزمن الخطاب، وفي النص ينهضان على ثنائية:

2- التجلي والخفاء

ويمكن أن نتحدث عن هذه الثنائية في سياق الكشف عن زمن القصة وزمن الخطاب، ذلك أننا نجد تصريحا بأحدهما أحيانا دون الآخر مما يقضي بذل مجهود لبيانه، فزمن الأحداث أو الوقائع في هذا النص ليس محددا تحديدا دقيقا إلا أننا يمكن أن نكشف عنه ونستنبطه، فهو ما بين 1972 و1986 من خلال بعض الإشارات

- **السنوات الظاهرة:** ففي النص إعلان عن سنوات باعتبارها تواريخ مثل التاريخ الوارد في الوصف بداية النص:" على مدار العقود التالية لسنة 1970 عرف الساحل الإفريقي والصحراء الغربية، خاصة منها البلاد الموريتانية جفافا محرقا"[1]. فهذه بداية الزمن. وقد تخللت النص إشارات تاريخية عبر ذكر بعض السنوات 1973-1975-1981-1985.
- **السنوات الخفية:** وهي غير المعلنة صراحة، ومن أمثلتها، ذكر الانتخابات أو قنبلة الديمقراطية والتي يمكن أن نعتبرها الانتخابات البلدية التعددية الأولى اعتمادا على ما ورد على لسان دلدول سنة 1985 مخاطبا أخته سلامة" إن السياسة ستنفجر قنبلتها المدوية في الأسابيع القادمة"[2] لتكون نهاية النص.
- **الشهور الظاهرة:** وهي المصرح بها مثل ورود ذكر (آب أغسطس ...
- **الشهور الخفية:** وهي التي لم تذكر بالاسم شهور الصيف..
- **الفصول والأسابيع والأيام**"(فصل الصيف والخريف والشتاء) والأيام (5 أيام، يومين ....) والأسابيع (أسبوع ... الأسابيع..) والأوقات (المغرب، العشاء، الظهر، العصر..).

---

[1]-العيون الشاخصة، ص 135

[2]- العيون الشاخصة، ص 94

وعندما حاولنا أن نوزع زمن القصة إلى محطات كبرى واجهتنا صعوبة ذلك نتيجة تداخل الحكايات على مستوى زمن الخطاب. ورغم ذلك فإننا سنسعى إلى تبين معالم تلك المحطات.

3- التمفصلات الزمنية الكبرى

إن الصعوبة التي أشرنا إليها آنفا تكمن في أن الزمن يرتبط بمجموعة من الحكايات التي تقع في الوقت نفسه إلا أنها ترد متقطعة عبر مسار النص. وقد اعتمدنا المنهجية التي قدم سعيد يقطين في تحليل الخطاب الروائي عن الزمن في رواية جمال الغيطاني" الزيني بركات"[1]، رغم اختلاف النصين. ويمكن أن نوزع النص إلى محطات زمنية كبرى هي:

الوحدة الأولى: ليلة النحر ص 5-27- صيف (1985)

الوحدة الثانية: قدوم السياح، ص 29 - 36 (...+55 -73) الظهر

الوحدة الثالثة: خروج النجيب، ص 37- 39 ...

الوحدة الرابعة: ماضي النجيب، ص 41- 47 (1973 -1981)

الوحدة الخامسة: نزول المطر، 49-54، صبيحة من أوائل شهر آب (أغسطس 1985)

الوحدة السادسة: تسليم الإجازة والوصية، ص 75- 77

الوحدة السابعة: استعداد دلدول للعودة إلى بئر الخير، ص 79-85 الشتاء

الوحدة الثامنة: أخبار متفرقة، ص 87- 99

الوحدة التاسعة: بين دلدول وولد مختاري، 101- 112

الوحدة العاشرة: النبتة الغريبة، 113- 118 الشتاء

الوحدة الحادية عشرة: إقامة ولد مختاري إماما، 119-120

الوحدة الثانية عشرة: انفجار قنبلة الديموقراطية والانتقال الجماعي، 121-136

---

[1]- يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي، ص 92

وسنقدم جدولا يحدد الوحدات السردية والمواقع الزمنية المذكورة ... وذلك على النحو التالي:

الوحدات	عدد الصفحات	المواقع
ليلة النحر	23	غير محددة 1983؟-1985؟
قدوم السياح	26	
خروج النجيب	03	
ماضي النجيب	06	1973- 1981
نزول المطر	06	آب (اغسطس 1985)
تسليم الإجازة لابن مختاري	05	
استعداد دلدول للعودة إلى بئر الخير	06	
أخبار متفرقة	12	
بين دلدول وولد مختاري	11	
النبتة الغريبة	06	
إقامة ولد مختاري إماما	02	
انفجار قنبلة الديموقراطية والانتقال الجماعي	16	1986 غير مذكورة

4- تقنيات الزمن

لقد استخدم النص تقنيات في التعامل مع الزمن لشد القارئ وإشراكه في بناء الحدث.

4-1- خصوصية الحدث الأول

إذا أردنا أن نحدد حاضر الحكي انطلاقا مما يسميه جنيت بالحكي الأول[1] فإننا نلاحظ أن الحدث الأول في العيون الشاخصة له خصوصيته، حيث يعلن عنه، بعد تقديم مشهد وصفي،" كان اليوم صيفا أشهب، والوقت غروبا، واقترب رجال الحي-وأغلبهم مسنون-من شجرة المسجد استعدادا لأداء صلاة المغرب، ورفع أحدهم الأذان فجأة، وعلت حال انتهائه أصوات ضعيفة النبرات، منها محتج ومخاصم ومجادل"[2]. فالحدث إذن هو أذان صلاة المغرب في يوم من أيام الصيف. ولهذا الحدث خصوصيته لأنه يحدد فصلا بين النهار وما يدل عليه من إشراق وبين الليل وما يعبر عنه من ظلمة. وهي الثنائيات التي تحكم الصراع الدائر بين مجموعتين إحداهما تتبنى الرحيل وترك الديار نتيجة

---

[1]- انظر، جنيت، مرجع مذكور ومحمد الأمين مولاي إبراهيم.

[2]- العيون الشاخصة، ص 6

الجفاف واستحالة المقام، وأخرى ترى ضرورة الإقامة والتمسك بالأرض والمحضرة، وتعتبر الصبر على ذلك أحسن من الانتقال إلى المدن وما قد يصاحب ذلك من فرط عِقد الأسرة ومن ابتعاد عن القيم والأخلاق النبيلة. يقود المجموعة الأولى حبيب المؤذن سليل أسرة أهل سيدين، في حين يتزعم الثانية ابن عمه شيخ المحضرة. ولم يتم تحديد الحدث الأول بالسنة لأنه مشهد متكرر منذ أصبح الجفاف محرقا، وصار العَضُّ على البقاء في هذا الحي بالنواجذ أمرا لا يتحمله إلا الأقلون.

4-2- تقنية انحسار الماضي واتساع الحاضر

تتحدد سنة حاضر الحكي في النص من خلال الحوار الذي دار بين حبيب وولد مختاري بعد صلاة العشاء، حيث يخاطبه قائلا:" تعرف أنني وصلت هنا قبل إحدى عشرة سنة. وغادر دلدول هذا الحي بعد عام من وصولي"[1]. فإذا عرفنا أن دلدول غادر صحبة ابن عمه النجيب سنة 1973" العارفون بأحوال بئر الخير، ومحضرته الشهيرة، يتذكرون كيف غادر الفتى النجيب حيه إلى مدينة انواكشوط، صحبة ابن عمه أحمد الملقب دلدول ولد حبيب. ولم يخبرا أحدا ... كانت بداية سفر النجيب في العام 1973"[2]. فإننا نضيف عشر سنوات لتصبح السنة 1983. فما قبل هذا التاريخ سيتم عبر الاسترجاع كما سنبين خلال حديثنا عن تخطيب الزمن.

إن الناظر إلى الجدول السابق يتبين أن حظ السنوات المسجلة من الصفحات في النص ليس متكافئا من حيث عدد الصفحات. فإذا افترضنا أن الزمن غير المذكور تتقاسمه السنوات ما بين 83 إلى 86 فإن حظ الماضي سيقتصر على حدود ست صفحات (1973- 1981). وهو ما يعبر عن إعلان الوحدات انهزام القائلين بالإقامة والداعين لها. بينما نجد أن الحاضر يغطي بقية المساحة مما يكشف عن انتصار الواقعية" الرحيل" الذي سيكون نهاية المطاف. وما سيصاحب ذلك من تحولات سوف نحاول تقصيها عند حديثنا عن التمفصلات الزمنية الصغرى.

4-3- انتظام الزمن

سنكشف طريقة انتظام الزمن بوصفها تقنية من خلال بيان التمفصلات الزمنية الصغرى وما تشمله من مقاطع سردية، وذلك عبر الاقتصار على تحليل الوحدة الأولى من الوحدات الكبرى السابقة، حيث سنوزعها إلى مقاطع سردية ومواقع زمنية على النحو التالي:

الوحدة الأولى: ليلة النحر: تبدأ من: تماوجت الرمال.... لأنها أرض خراب، تقع في 23 صفحة: ويمكن توزيعها إلى خمس مقاطع سردية هي:

---

[1]- العيون الشاخصة، ص 14

[2]- الرواية، ص 41

- **آثار الجفاف:** يعتبر هذا المقطع إعلانا عن الإطار الزماني والمكاني الذي ستجري فيه الأحداث، فهو يصف الرمال بألوانها المختلفة، وقد أرسلت شمس الأصيل أشعتها الباهتة. ويكشف انحسار الغطاء النباتي وتدهور الأشجار وبُعد الماء، إضافة إلى شدة عواصف الشتاء التي لا ترحم صمود الأشجار. ويتحدد الزمن في الأصيل والليل من جهة، وفي العقود التالية لسنة 1970. وزمن هذه الوحدة إذن هو الحاضر إلا أنه امتداد للماضي منذ استفحال ظاهرة الجفاف. لذلك كان تحديده عاما (العقود، الأصيل، الليل، الشتاء)." في إحدى هذه الوهاد الغائرة تجاورت خيام وأخبية وعرائش أهل الشيخ حمدان ولد سيدينَ، تشارفها التلال البيضاء من الجهات الأربع. ويبعد هذا الحي البدوي كيلومترين غربا من بئر الخير، وأزيد من مائتي كيلومتر إلى الشمال الشرقي من مدينة نواكشوط على شاطئ المحيط الأطلسي"[1]. فهذا المقطع هو المثير الداعي إلى الرحيل أو الصبر على البقاء.
- **الخلاف حول وقت الصلاة:** وهو ما سيكون مناسبة لبيان الخلاف بين فريقين، فريق يعجل الصلاة وفريق يؤخرها، وهو الوجه الظاهر للخلاف العميق حول الرحيل أو البقاء." فهذه ليست جبالا، بل رمال ووهاد بسطها الله وبارك فيها بإذنه ولطفه"، كما يقول شيخ المحضرة." والله إنها لجبال ومرتفعات مخيفة، ومجابات رهيبة، يجب أن نرحل عنها إلى الأبد كما فعل غيرنا"[2] على حد تعليق حبيب. زمن هذا المقطع هو الحاضر متمثلا في الصيف وقت الغروب. وهو قابل للتكرار في أي يوم آخر.
- **زيارة محمد ولد مختاري لحبيب المؤذن:** تضمن هذا المقطع أخبارا عن أهم الشخصيات في النص. فقد بدأنا نتعرف على شخصية محورية، وهو الطالب الغريب الذي ينتظر إجازته من الشيخ (استشراف للمستقبل المتوقع أو إعلان الاستباق). يقوم بمهام عديدة، منها هنا تخفيف حدة الخلاف (الحاضر). وذلك عبر حوار في الحاضر يتضمن استرجاعات، تقدم جوانب من ماضي الأسرة (الماضي البعيد) بما فيها دلدول أحمد ولد حبيب المهاجر (الماضي القريب)،

---

[1]– العيون الشاخصة، ص 6

[2]– العيون الشاخصة، ص 8

وماضي الطالب (الماضي القريب). إضافة إلى استباق يستشرف مستقبل العلاقة بين الطالب وبنت الشيخ" الجوهرة النفيسة"، حيث يتساءل هو نفسه" فكيف سيمكن تسليمها لمجهول الحسب والنسب مثلي؟"[1]. فهذا المقطع تتخلل فيه الحاضرَ أزمنةٌ من ماض بعيد وقريب إلى مستقبل منتظر، وذلك على النحو التالي: الحاضر (بعد صلاة العشاء)، الماضي البعيد (يجمعني وإياه الجد العاشر)، والماضي القريب، ضمنه الحاضر (لم يبق منهم على قيد الحياة إلا ذلك الرجل المجنون الساكن في الخباء)، الحاضر، الماضي القريب (أما أسرتي فتنحصر في ابنتي سلامة التي تزوجت رجلا ذهب بها إلى مدينة القوارب على ضفة نهر السنغال، بالإضافة إلى ولدي أحمد (أستودعه الله)، الماضي القريب (النجيب المجنون). الأزمنة: الحاضر، الماضي البعيد والماضي القريب.

- **الطلاب ونحر الناقة:** لقد أعلن الراوي عن هذا العنصر ضمن المقطع السردي السابق من خلال مشاهدة الطالب نارا مشتعلة جنوب الحي مما يثير الاهتمام قبل أن يلتحق بهم ليعلم شأنهم، فقد أكرم الطلابَ أحد رجال الحي رُزِق مولودا ذكرا. وضمن نقل صورة الطلاب، وهم يتعاطون الحديث حول المائدة بشكل ثنائي، يرجع بنا الراوي إلى الحديث عن ولد مختاري ليكمل صورته بوصفه قائد الطلاب المقرب من شيخ المحضرة لمرابط. وعبر المونولوج يتساءل عن المستقبل (استلام الإجازة والرجوع إلى الأهل ومصيره: هل سينسى عيني عزة لينزوج من أبناء جلدته؟ وهل ستجد هي بين أبناء عمومتها من هو كفء لها أم أنها ستكون من نصيبه هو؟ وهل ستبقى عانسا؟). ونعود إلى الحاضر، وولد مختاري على بعد أمتار من الخباء الذي يسكنه المجنون. ليخاطبه: هل ستأكل يا ابن أشياخي؟ فيجيبه – على عادته – معتبرا ذكره الفيلسوف اليوناني (ثينون) مرات عديدة في كتبه. وزمن هذا المقطع محدد في: بعد صلاة العشاء إلى منتصف الليل. ويتضمن الماضي القريب عبر الاسترجاع (جيء به قبل شهور مقيدا ولكن سرعان ما أَلِفَ الخباء واستغنى عن القيود).
- **مرور الجرم السماوي:** يحكي هذا المقطع ما أحدثت هذه الظاهرة الطبيعية من فزع وخوف في النفوس التي هرعت إلى خيمة الشيخ تستنجد به. وتقدم العجوز تفسيرا يعتبر

---

[1]– العيون الشاخصة، ص 17

هذه الظاهرة" تبدو قبل ولادة صالح ولي؟ أو موته -كما يقال -والله أعلم. ويقال إنها أيضا تأتي مبشرة بعهد جديد من الأمطار الغزيرة والخصب. الله أدرى! وفي هذا المستوى يظهر استغلال الحكايات الشعبية في تفسير الظواهر ومحاولة ترهين الزمن من خلالها: فالحاضر (الجفاف) أما الجفاف فموجود! وأما توقع (مستقبل) مزدهر خصب فينفيه النص عبر تدخل الراوي العليم،" فلن تكون رمالنا هذه من عارفيه لأنها أرض خراب!"[1].

لقد تبين أن الزمن ينتظم في النص وفق حركات من الماضي إلى الحاضر، وقليلا ما يستشرف المستقبل. وهو يحيل إلى زمن تاريخي، يرتبط بالسياق الموريتاني من جهة، والعربي الإسلامي من جهة أخرى، سنكشف عن دلالته من خلال المحور الثاني.

ثانيا: دلالة الفعل

إن الأفعال في علاقتها بالزمن تشير إلى ثنائية الماضي والحاضر، وما يرتبط بالأول من أصالة وما يتصل بالثاني من معاصرة. ويتضح ذلك من خلال الشخصيات في رواية العيون الشاخصة باعتبار أن الفعل وثيق الصلة بالشخصية[2]. وسنكشف عنه من خلال الثنائيات التالية:

1- الخوف والرجاء:

في العيون الشاخصة معاناة تتضح من خلال حياة الشخصيات بين الخوف والرجاء. فالحاضر زمن خوف، لذا كان الماضي ملاذا يبعث في النفس الأمل والرجوع إلى الطمأنينة والاستقرار. فقد كان الصيف نذير شؤم على استفحال ظاهرة الجفاف وتعزيز فكرة الرحيل، في حين يمثل الخريف وما يميزه من تهاطل بعض الأمطار مؤشرا على استقرار في المكان يشي بانتصار بقاء المحضرة التي تمثل صمام الأمان من الفساد الأخلاقي الذي يعاني منه سكان المدينة:" اللهم أجرنا من أحوال الذين هجروا مرابعهم.. وماتت محاضرهم العلمية والعياذ بالله.. أولئك الذين التجأوا إلى المدن التي بناها الاستعماريون أول ما قامت، وأول من انضم إليها من الناس أوباشهم وحواشيهم (....) فكانت أعشاشا للفاحشة والإلحاد"[3]. فالبقاء إذن رمز انتصار الماضي، في حين يمثل الرحيل انتصار الحاضر وما يستدعيه من تحول." هل نرحل إلى أقرب المدن ونتخلص من المواشي – كما فعل الآخرون– أو

---

[1]- العيون الشاخصة، ص 25

[2]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ط3، ص 215

[3]- العيون الشاخصة، ص 11

نحاول ممارسة الحياة بأشكال أخرى جديدة"[1]. ويشير عنوان النص إلى خطورة الوضع، حيث تظهر آثار الجفاف على العيون كما لو كانت تعيش يوم القيامة الذي تشخص فيه الأبصار.

1- القبول والرفض

وهي الثنائية الثانية التي يعبر عنها الخلاف بشأن وقت الصلاة، وهو– وإن كان أمرا مألوفا في هذه البلاد– وخاصة إذا تعلق بصلاة المغرب، إلا أنه يدل على ما سيحدثه الواقع الجديد من خلاف في الشأن الديني عندما يتصل بقضايا جديدة متصلة بالحداثة. وقد وردت في النص باعتبارها قناعا للخلاف الحقيقي بين الشيخين.

2- الطبيعة والمجتمع

إن الوحدات الصغرى تتوزع بين ما يتعلق بالطبيعة مثل أثر الجفاف ومرور الجرم السماوي والنبتة الغريبة وبين ما هو اجتماعي مثل نحر الناقة وزيارة ولد مختاري للمؤذن. فهناك واقع فرضته الطبيعة يلقي بظلاله على النص كله، لذلك كان الانتقال من عنصر إلى آخر محكوما بالرغبة في الكشف عن وطأة الزمن وتحولاته على الفرد المجتمع. يعيش القارئ مع النص زمن المعاناة في صراعه مع زمن السعي إلى الخروج من شدة الأزمة، فالحاضر يشهد تحولا في الطبيعة يقتضي تحولا في المجتمع تمشيا مع الظروف الجديدة.

3- الريف والمدينة

وترتبط هذه الثنائية بظاهرة الهجرة إلى المدينة نتيجة الجفاف المدمر الذي ضرب موريتانيا في بداية السبعينيات من القرن الماضي، وهذا ما تتحدث به دراما رواية" العيون الشاخصة" لأحمدو بن عبد القادر على لسان شيخ المحضرة وهو يصارع ضد هجرة حيه، تحت وطأة الجفاف، إلى نواكشوط، التي يراها مدينة للنصارى والأوباش والإلحاد.

لقد حاول الكاتب عبر هذه الدراما أن يؤسس سيرة ذاتية لولادة مدينة نواكشوط، حيث يتصارع المزاج البدوي مع إكراهات التمدن وتأثيرها على السلوك الإنساني، ومن ذلك" بوتيك/حانوت الحي"، كنقطة للتمفصل بين الكيان القبلي وبين " المدينة الحديثة"، وكذلك ظاهرة " الكـزرة" المعبرة عن فوضوية تملك المكان المدني.

وهذه النظرة العدائية للمدينة بسبب سجلها التاريخي نجده في رواية "ذاكرة الرمال" للكاتب محمد بن محمد سالم، فيقدم لنا الحوارية التالية بعد أن وصلت عقدة الرواية إلى ذروتها:

---

[1]– العيون الشاخصة، ص 9

"– وإلى أين سنرحل؟

- أفكر في أن نذهب إلى نواكشوط.

- نواكشوط حسبي الله ونعم الوكيل ما لنا ولنواكشوط مدينة النصارى والعساكر ..."[1].

إن تيمة المدينة في هذا المقبوس تتحدد بكونها توزيعا بواسطة الدلالة السردية للقيم الدلالية والسوسيوثقافية على البرامج السردية التي تشمل عاملا يحدد لنفسه موضوعا ثمينا للبحث، إن التيميات بمفهومها في سيميوطيقا السرد تؤدي وظيفة الاستثمار الدلالي لعناصر المشهد[2].

لقد تعرضت المدينة الموريتانية في البداية لحصار البدوي المتشكك في شرعية وجودها، لكن وجود نوايا المدن الجديدة، ساعد، رغم عمرانها الهش، على كسر هذا الحصار، وجر هؤلاء السكان إلى أحضانها، فكان ذلك بداية لنوع من القبول والتصالح مع هذا الكيان السياسي الوليد، وهو ما يوضحه النص التالي حول قيام مدينة نواكشوط: "فقد نمت وتطورت بصفةٍ سريعة جميع الحرف الصناعية المرتبطة بالبناء من معامل الحديد والتجارة والرصاصة والكهرباء.... وغيرها، كما تعدّدت وتكاثرت المحلات التجارية والخدمات وشهد النقل تطوراً كبيراً.

ولعل الاستقطاب السياسي المتنامي، وإن لم يكن بالإمكان تقدير تأثيراته الخاصة، قد تسبب في تسارع الهجرة، فجميع الناس يتوجهون إلى نواكشوط لأنه "يجري فيها كل شيء" وتعقد فيها آمال النجاح أو حتى مجرد البقاء، وتبرز فيها التحالفات وتأتي أكلها شأنها في ذلك شأن التدخلات والوساطات. وإلى نواكشوط تأتي جميع المُساعدات التي تُعطى للدولة وفيها تجازى وتكرم القبائل وفيها محل الحل والعقد...الخ".[3]

4- الاتصال والانفصال (الزواج المرتقب والطلاق الواقع):

يمثل الزواج مركز جذب بين الرجل والمرأة، وتنوعت تقنيات الروائيين في موقعة هذه العلاقة في سياقات مختلفة، سياسية واجتماعية، وتمتلك تيمة الحب رصيدا هائلا من الأدبيات، قصص العشاق والثوار والأمراء.

وقد يتطور موضوع الزواج عند الكاتب الواحد ليتخذ أبعادا ودلالات مختلفة، كما نطالعه على مستوى رواية العيون الشاخصة، فقد تحول صراع المحضرة مع البيئة الصحراوية المهددة بالفناء والضياع، إلى صراع غير مباشر مع المدينة الحديثة/نواكشوط، كما تولد عند الطالب المحضري ولد مختاري

---

[1]– ذاكرة الرمل، ص: 52

[2]– ينظر: Greimas, (A. J), « Du sens », Paris, Seuil, 1983

[3]– نواكشوط مدينة بدوية، البروفسور عبد الودود ولد الشيخ، مقالة منشورة في موقع تقدمي، مرجع مذكور سابقا.

مشغل آخر بات يستقطب كل اهتمامه، وهو الزواج بابنة شيخه، وذلك ضمن صراع صامت مع ابن عمها دلدول، ومن ثم انقسمت المحضرة حول هاتين الثنائيتين.

وبين هذين المسرودين يتخلق سديم المادة الروائية ويتم استقطابه وتوزيعه على مستوى السطح عن طريق بنية الممثلين وأدوارهم الموضوعاتية، ليبدأ ديالوج الأصوات الروائية.

وإذا كانت إشكالية المركبة الثنائية الأولى المحضرة/المدينة تضع النص على مفترق طرق تاريخي وجماعي، فإن الثنائية الموازية ولد مختاري/دلدول جذبت المسار السردي إلى بعد فردي وجودي، ضمن منحى موضوعاتي مألوف (الصراع على المرأة).

وهذا البعد الاجتماعي لم يخل من فائدة لخدمة البانوراما المركبة التي يحاول الرواة تقديمها عن مجتمع المحضرة، إذ مثل ما يشبه المرآة تنعكس عليه خصوصيات مجتمع البيظان الزاوي، ووأنظمته الداخلية. ويشكل الطلاق من جهة أخرى الوجه الآخر المعبر عن المجتمع حيث ينعكس أثره على المجتمع عبر غياب الأب وتولي الأخ بعض شؤون أخته سلامة بعد طلاقها لأنها مجرد موظفة بسيطة (منحها قسرة أي سكنا في أحد أحياء الصفيح).

ورغم أن هذا التوجه في هيكلة دراما الرواية وتشاكلاتها الكبرى قد أفقر أصوات النص الروائي، وانشغل به عن استحضار نماذج اجتماعية وتيمات أخرى مهمة لخدمة المنظور العام للنص السردي، فقد حد من جفاف السرد التاريخي، ووشمه بلمسات ذاتية إنسانية.

ولعله يمكن القول إن هذا الأسلوب في الكتابة السردية، قد مس من طبيعة الجنس الأدبي للرواية، إذ جعل البرنامج السردي يبدو وكأنه شريط مركب تتداخل فيه كل من درامية المأساة (صراع المحضرة مع كارثة الجفاف) وهزلية الملهاة (صراع الطالب ولد مختاري للفوز بابنة الشيخ).

5- الحاضر وترهين التاريخ

إن التحولات التي بدأت تعرفها الأمة العربية الإسلامية منذ اتصالها بالآخر عبرت عنها النصوص الأدبية والفكرية، بين مبشر بعهد جديد يُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور، سواء كان ذلك بتبني النموذج الغربي أو من خلال الاستفادة أو حتى عبر رفضه وبيان ضرورة العودة إلى التاريخ قبل أن

تشوبه الشوائب. كل ذلك أصبح معروفا في سياق إشكالية النهضة وسبل تحققها. وقد تم طرق ذلك بتفاوت بين المركز والأطراف. وقد شهدت موريتانيا في الثمانينات أوج ثمرة تلقي تلك النقاشات التي عرفتها الأمة في مرحلة سابقة، وحاولت تيارات سياسية أن تترجمها إلى الواقع، بعد وصول بعض حاملي تلك الأفكار إلى السلطة السياسية كالاتجاهات القومية والإسلامية. وهذا ما حاولت الرواية أن تكشف بعض جوانبه في النصوص التي سميناها نصوص التأسيس عبر الواقع كما الحال في العيون الشاخصة ووجهان في حياة رجل لتربه بنت عمار إضافة إلى الغبراء لمحمد الأمين ولد احظانا التي .... وفي وادي النعام وإن أضيف إلى هذا الصراع بعد يتعلق بالسياسة الداخلية وتأثير الخارج على صنع القرار الداخلي.

ففكرة الرحيل التي تعتبر الحاضنة لأحداث العيون الشاخصة، هي نفسها التي نجد في وادي النعام تتحكم في انتظام الخبر ونمو الأحداث إلا أن الأولى قسرية بفعل عامل طبيعي سلبي هو الجفاف والقحط في حين أن الانتقال يراد له أن يكون إراديا نتيجة عامل طبيعي إيجابي وهو اكتشاف اليورانيوم في المنطقة وهذه مرحلة لاحقة على الانتقال القسري لذي نجد مؤشراته في هذه الرواية (إذ المتصارعون على زعامة القبيلة لا يسكنون وادي النعام وإنما يزورنه في الظروف السياسية)[1] كمأوى من خلال التاريخ القديم والصراع بين القبائل والبحث عن الجذور بواسطة متخيل يسعى إلى تجذير الكتابة الروائية الناضجة وهو ما أعلنت رواية القبر المجهول بدايته وعمقته مدينة الرياح ليتواصل في موسم الذاكرة وحشائش الأفيون بشكل تتضح معالمه والفوارق الدقيقة بينه من خلال تحليل بنية الخطاب في هذه النصوص ذات الزمن الدائري بين الانفتاح والانغلاق.

وقبل أن نختم لا بد أن نشير إلى ما يرمز إليه هذا العنوان، فهو يتناص في مضمونه إيحائيا مع يوم القيامة وما يتصل به من خوف، العيون الشاخصة.

خلاصة

إننا من خلال العرض السابق يمكن أن نلحظ أن تقنيات الزمن في النص المدروس تميزت بسمات بارزة تمثلت في المراوحة بين انتظام الخبر في سياق زمني تعاقبي من جهة أو ضمن تأجيل القصة المركزية لمتابعة الأحداث الموازية، وهذا ما قد يثير جوانب من خصوصية السرد الصحراوي، حيث تتوارد الخواطر على الراوي في المجلس مما يميز شعرية رواية الصحراء[2] التي قد تمتح أبعادا جمالية تبني السرد وتمنحه متعة في مستويات من القول مختلفة عن سرد المدينة.

---

[1] – وادي النعام، ص 35

[2]– راجع محمد الأمين مولاي إبراهيم: شعرية رواية الصحراء

المراجع

أولا: المراجع باللغة العربية

1- بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي المركز الثقافي العربي، ط1.

2- ولد عبد القادر، أحمدو، العيون الشاخصة، منشورات مؤسسة امربيه ربه لإحياء التراث، ط 2014

3- محمد الأمين مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني، دار الأمين ط1، 2001

- السرديات والرواية الموريتانية، تنفيذ دار الفكر ط1، 2010؛
- السرديات وخطاب السرد، تنفيذ دار الفكر ط1، 2010؛
- شعرية رواية الصحراء، منشورات جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛

– بنية الخطاب ودلالتها في القبر المجهول أو الأصول، المكتبة الأكاديمية 2000.

4- محمد الحسن ولد محمد المصطفى، الرواية العربية الموريتانية، الهيئة العامة المصرية للكتاب، د.ن.

5- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي ط4، 2005، الدار البيضاء المغرب.

– القراءة والتجربة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1985

– تحليل الخطاب الروائي، الزمن، الصيغة، التبئير، منشورات المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 3، سنة 1997

6- العيد، يمنى، تقنيات السرد الروائي، ط1، 1990

ثانيا: المراجع باللغة الفرنسية

1- Jean Miche l Adem: Le récit Avril 1987

2– Greimas, (A. J), « Du sens », Paris, Seuil, 1983

3- Tzvetan Todorov: Les catégories du récit in Communications 8 ; l'analyse structurale du récit; Editions Seuil 1981